في محطة القـــاهرة

للأســـتاذ علي الطنطاوي

دخل (المحطة) في اليوم السادس من سبتمبر سنة ١٩٢٨
وخرج من (المحطة) في اليوم التاسع عشر من ديسمبر سنة ١٩٤٦

دخل من باب ، وخرج من باب ، وكانت المحطة كأنها النسخة المختصرة من كتاب الدنيا ، وكأنها الصورة المصغرة لها : كل يركض إلى غايته ، ويزحم بكتفه ، ويدفع بيده ، ويعتدي ويُعتدى عليه ، والحمالون ينهبون أموال الناس ما استطاعوا ، والناس يتقونه ما قدروا ، والقطُر تصفّر وتزمجر وتملأ الجو دخاناً وشراراً ، وتسرع لتفرق أحباباً ، وتجمع أحباباً ، وتريق دموعاً وتضحك أفواهاً ، وكأن صفيرها لحن الوصال العذب لناس ، ونواح الفراق الأليم لآخرين ؛ وكان الباب يفتح أبداً ويغلق ، والناس يدخلون ويخرجون ، لا يلتفت أحد إلى أحد ، ولا يسأل سائل أخاه عن آلامه ولا عن آماله ، فهو يستمتع بمسراته وحده ويتجرع أحزانه بلا معين ...

والمحطة كالدنيا تسعد وتشقي ، وما تسعد المرء ولا تشقيه إلا نفسه وذكرياته . هذا يحبها لأنه دخلها في مسرة ، واستقبل فيها الحبيب ، فهو يذكر كلما مرّ بها ، أو سمع صفير قطُرها ، تلك الساعة التي كانت عنده العمر ، ساعة جاءه البشير بقدوم حبيبه فذهب إليها يكاد يطير من الشوق ، وقام ينتظر القطار لا يستطيع أن يستقر في مكان ، واستبطأ الوقت فهو يخرج ساعته كل دقيقة ، يحسب الدقيقة من الانتظار دهراً ، فيراها لا تتحرك عقاربها ، حتى إذا صفر القطار وهدر خفق له قلبه ، وغلى في عروقه دمه ، فركض إليه ، فلما أبصره رأى سواده نوراً مشرقاً لأنه يحمل الحبيب ، وناره المتقدة برداً على قلبه وسلاماً ، ودخانه أرق من النسيم العليل ؛ ورآه بثقله أخف من الطيف الساري وأقبل يزاحم الناس ، يطأ بقدمه حيث لا يدري لأن بصره

شعبٌ واحدٌ ناطقٌ بلسان عربيٍّ مبين لا يعرف نفاق اللسان الإنجليزي ولا تكاذُبه وخداعَه ، بأنّه أيضاً لا يستطيع أن يتجزأ ، ولا هو قابل للتجزؤ .

ولقد استزلّ الشيطانُ بعض ساستنا ؛ فأخذوا يقولون إنّ مصر لا تريد أن تستعمر السودان ، بل تريد أن تمنحه الاستقلال الذاتي ! خِلاً حلاً أيها الرجال ، فإن هذا ما يريده الإنجليز ، إنهم يريدون أن تقرّوا بألسنتكم ما الحق شاهدٌ على بُطلانه ، وهو أن الشعب المصريّ شيء ، والشعب السوداني شيء آخر ؛ ويريدون أن تقولوا إن النيل ممكنٌ أن يتجزأ ، ولو بعضَ التجزؤ ، فإن هذا حسبهم منكم اعترافاً وتقريراً .

فتوبوا أيها الساسة من هذا الإثم ، ولا يُرهبكم حقُّ تقرير المصير ، ولا مجلس الأمن ، ولا هيئة الأمم المتحدة ، فإن هذه الرهبة باطلٌ كلها . توبوا أيها الساسة ، ولا تخافوا من أكذوبة الدانوب ، فهو النهر الوحيد الذي تتعدّدُ الدُّوَل على جفافيه ، وهو نهر ليس له قيمة زراعية . واعلموا أنه لا يكاد يوجد في الدنيا كلها نهرٌ زراعيٌّ واقعٌ مجراه في أكثر من أمةٍ واحدةٍ ، وهذه الأمة الواحدة يكون لها كل السلطان عليه من منبعه إلى مصبّه . لا تخافوا أيها الساسة وتوبوا وتبرأوا مما قلتم ، وخيرٌ لكم أن تدرسوا طبيعة النيل والأضرار المخوفة من تمزيقه ، وأن تعرفوا ما ذا تريدُ إنجلترا بفصل السودان عن مصر وضمّه إلى الجزء المنفى إلى جنوب إفريقية والجنرال سمطس ، فهناك البلاء الأعظم .

أيها المصريون السودانيون : إن النيل هو إفريقية كلّها ، فاحذروا أن تضيعوا أوطانكم ، وتُلْووا بأمجادكم ، وتضعوا أعناقكم في نير العبودية السرمدية إذا احتوشتكُم المناسر الغربية عن إفريقية الناعمة التي بدأت تستيقظ من غفوة طالت عليها الآباد . احذروا كذب البغاة الطغاة المفسدين في الأرض ، واحذروا ببغاواتهم وسنمائهم فإنهم الحارقة الآكلة إذا استمكنوا منكم وأوضعوا خِلالكم يبغونكم الفتنة ويَسُومونكم ذُلاً مستوراً ببهرج الاستقلال وتقرير المصير . لا تخافوا مجلس الأمن ولا هيئة الأمم إذا تقدمتم إليهم بقضيّة فيها كلّ دليل لا يبطله شيء من تاريخ ولا عقل ولا مصلحة .

وأنتم يا إخواننا وأهلنا وعشيرتنا في السودان احذروا الدولة التي تريد استقلالكم ، وتريد أن ترعاه لكم ، كما رعت غيره من قبل ! ! فإن «من استرعى الذئبَ ظَلَم» !

محمود محمد شاكر

معلق بالنوافذ ينظر الوجوه فلا يحفل بها ويبصرها كالسرج للطفاة ، لأنه يريد وجهاً واحداً يراه مضيئاً بالسناء ، حتى إذا وصل إليه وصل إلى السعادة ... فهو يذكرها كلما رأى المحطة .

وهذه تكرهها لأنها عرفت الشقاء فيها ، وذاقت غصة الحياة بين جدرانها ، فقد كانت سعيدة حتى حل الوداع ، ودنا السفر ، وصحبته إلى المحطة ، فوقفت معه ، ثم سايرته إلى رصيف القطار ، فصمت معه إليه ، وقعدت تكلمه كما كانت تكلمه كل يوم ، تتحدث بتوافه الأمور ، ولو علمت أن هذا آخر لقاء ما كان ذاك حديثها ؛ ثم صفر القطار فشدت على يده وعانقته عناقاً خفيفاً على استحياء من الناس ونزلت ، فوقفت تنظر إليه وهو في شباكه ، والقطار يبتعد .. ولكنها لا تزال تميش بقربه لم تذق بعد طعم الهجر ولم تعرفه ، حتى إذا اختفى عن ناظريها ورأت نفسها منفردة ، صحت كما يصحو النائم من الحلم الممتع ليس في يده شيء منه ، وتبدلت حياتها السعيدة بالوصال شقاء وألماً ، وانطفأ النور الذي كان يهديها السبيل ، وكانت المحطة هي خاتمة سعادتها ، وهي فاتحة شقائها ؛ فهي تحج إليها كل يوم ، تقوم حيث قام الحبيب آخر مرة ، وتشم عبقه وتتحسس موطئ أقدامه وتبحث عنه حيث تركته في شباك القطار ، وتذكر كل حركة من حركاته ، وكلة من كلماته ، حتى صار ذلك مدار أفكارها ، وعماد حياتها ، ولكنها كانت تكره المحطة ، لأنها هي سبب الفراق ...

وما في الدنيا مكان تستقر فيه محجبات المواطف ، وتبرز مكنونات الضمائر كالمحطة ، وما في الأمكنة ماهو أحفل بالذكريات منها ، ففي كل إصبع منها ذكرى عزيزة على قلب ، وقطعة من حياة إنسان .

هنالك تبصر المختلف من ألوان الحياة قد ائتلف في هذه الصورة المعروضة ، والشتيت قد اجتمع ، وهنالك أمام الحاجز الحديدي ذي الأبواب المؤدية إلى الأرصفة ، لا يفصل باباً عن باب ، ورصيفاً عن رصيف إلا جدار ... ترى جموع الناس في مدّ وجزر ، كما تضرب أمواج البحر صخرة الشاطئ ، يدخل الرجل من الباب فيصل منه إلى البلد الطيب ، ويدخل الآخر من الباب إلى جنبه فيحمله إلى القرية القفرة ، وهذا الرصيف فيه لقاء الأحبة ، وهذا فيه الهجر والبعاد ، وكذلك الحظوظ في الحياة تتقاوب بداياتها وتتباعد نهاياتها :

يتردد الطالب إذ يخرج من المدرسة بين طريقين لا يفصل بينهما إلا القليل ، ولكن هذا يمشي إلى الجنة وهذا إلى النار ، ويتردد التاجر بين أن يشتري البضاعة أو يدعها ، وما يتردد إلا بين الخسران والضياع والربح واليسار ...

***

دخل من باب وخرج من باب ، ولكن المحطة لم تنظر إليه . فقد رأت من الناس وشاهدت من الأحداث ، وأبصرت من القبل والدموع ، ومن المسرات والأحزان ما جعلها تملّ ، فأغمضت عينيها ؛ وتركت هذا السيل البشري يجري على هواه يحمل معه ما شاء من آلامه وآلامه ، ونامت .

دخل شابا في العشرين متوقدا حماسة ، يفور دمه ويتوثب يريد أن يبلغ الذروة بقفزة واحدة ، وخرج شيخا في سن الشباب لا يفور دمه ولا يتوثب ، ولا يريد أن يبلغ الذروة ولا يفكر فيها . لا يفكر إلا في شيء واحد هو أن يرى نفسه نائما على صفحة النسيم ، مرخي الأعصاب ، مغمض العينين ، لا يصنع شيئا ، ولا يعمل فكره في شيء حتى ... حتى يبلغ ساحل الموت .

دخل يحب الشهرة ويطمع فيها ، يريد أن يعرف الناس ويعرفوه ، وخرج زاهدا في الشهرة ، خائفا من تكاليفها ، يفزع من لقاء الناس لا يريد أن يعرف أحدا ولا يعرفه أحد .

دخل المحطة يستقبل الشام ، يدفعه الشوق إليها ، والغرام بها ، يستقبلها بسمة تبدو من خلال دموع الفرح ، كما تبدو شمس نيسان من خلال الغمام ، وترك من أجلها مقعده في دار العلوم ، ومستقبله في مصر وخرج هاربا من دمشق يريد أن يبتعد عنها حتى لا يأسى على ما يرى فيها ، وما يكاد يرى فيها إلا ما يبعث الأسى ...

كان طالبا في المدرسة همه الارتقاء من فصل إلى آخر ، وغايته الامتحان يريد النجاح فيه ، فصار موظفا لم تعد له غاية يسعى إليها ، ولا هم يفكر فيه فتشابهت أيامه ، وتماثلت لياليه ، وخلت من كل جديد ، يصبح خاملا متكاسلا لأنه لا يرقب في نهاره شيئا ، ويمسي متكاسلا خاملا لأنه لا ينتظر في ليله شيئا ، ولم يعد يجد ما يعمله إلا أن يشغل نفسه ساعة كل أسبوع بالكتابة للرسالة ..

لقد كان إنسانا يحس ويشعر ، وكان له عقل يفكر ويدرس ، وقلب يحب ويصبو ، فمزقته الوظيفة الكسل ، وسهلت له